Journal Of the Iraqia University (75-4) March (2026)
ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

التنافس البريطاني - الفرنسي تجاه مصر (١٨٠٥ - ١٨٤٨) دراسة في العلاقات السياسية الدولية

د. إنتظار هادي جاسم الدليميّ تدريسية في كلية التربية الاساسية / جامعة واسط

British-French rivalry towards Egypt (1805-1848)A study of international political relations

Intidhar Hadi Jassim Al-Dulaimi
Teaching at the College of Basic Education / Wasit University
e.al-dilymy@uowaist.edu.iq

المستلخص

تمتلك بريطانيا وفرنسا مصالح واسعة في الشرق الاوسط، ولاسيما في مصر، مما جعلهما في حالة تنافس دائم وسعي مستمر لترسيخ نفوذهما في هذه المنطقة. وكان لسيطرة محمد علي باشا على الحكم وتحقيقه لإنجازات واصلاحات كبيرة في مختلف مجالات الحياة عاملاً مهماً جعله مستعداً لمواجهة ضغوط الدول الاوربية، التي كانت تتحكم بالسياسة الدولية وقد ساعده على ذلك موقع مصر الجغرافي والاستراتيجي المهم . وقد حرصت السياسة البريطانية الخارجية على المحافظة على تفوقها الاستعماري وحماية طرق مواصلاتها الى الشرق ومستعمراتها في الهند، ومنع اي قوة منافسة، ولاسيما فرنسا من تهديد مصالحها. بينما سعت فرنسا استغلال مشروع محمد علي ودعمه لإيجاد موطئ قدم لها في الشرق. وبالتالي شكل هذا التنافس عاملاً مهما في توجيه الاحداث والسياسات المصرية والدولية خلال تلك المدة.

الكلمات المفتاحية: بريطانيا، فرنسا، محمد علي، الدولة العثمانية، مصر

Abstract :

Britain and France had extensive interests in the Middle East, particularly in Egypt, leading to constant competition and a continuous effort to consolidate their influence in the region. Muhammad Ali's consolidation of power and his significant achievements and reforms across various sectors made him resilient against the pressures exerted by European powers, which dominated international politics. Egypt's crucial geographical and strategic location further facilitated this. British foreign policy focused on maintaining its colonial dominance, protecting its trade routes to the East and its colonies in India, and preventing any rival power, especially France, from threatening its interests. Meanwhile, France sought to exploit Muhammad Ali's project and support him to gain a foothold in the East. This rivalry thus played a significant role in shaping Egyptian and international events and policies during this period.**Key words:** Britain, France, Muhammad Ali, Ottoman Empire, Egypt.

المقدمة:

يعد التنافس الدولي حول مصر في عهد محمد علي باشا من ابرز سمات تلك المرحلة التاريخية، لما تمتعت به البلاد من موقع جغرافي واستراتيجي مهم، يربط بين القارات الثلاث (اسيا وافريقيا واوربا)، والمطل على طرق التجارة عبر البحرين المتوسط والاحمر. وقد جعل هذا الموقع المميز مصر محط انظار القوى الكبرى، ولاسيما بريطانيا وفرنسا، اذ سعى كل منهما للسيطرة على الطريق المؤدي الى الشرق وحرمان الاخرى من الوصول اليه. فقد حاولت فرنسا تحجيم دور بريطانيا والاستفادة من مزايا سيطرتها على الطريق البحري الوحيد المؤدي الى الشرق، فضلاً عن رغبتها في الوصول للهند للقضاء على النفوذ الاقتصادي والسياسي لبريطانيا هناك. وفي المقابل تبنت بريطانيا خططاً مشابهة للسياسة الفرنسية، اذ سعت لتأمين الطريق المؤدي الى الهند (درة التاج البريطاني) والعمل على توسيع اسواقها الاستعمارية في الشرق. فحرصت كل من بريطانيا وفرنسا على تعزيز نفوذها فيها، والعمل على ابعاد الطرف الاخر بكل الوسائل الممكنة بما يمهد ذلك للقضاء عليه. ومع بروز مشروع محمد علي الاصلاحي والطموح لبناء

جيش قوي وحديث وتوسيع نفوذه الاقليمي في الجزيرة العربية والسودان وبلاد الشام، وجدت فرنسا في محمد علي حليفاً طبيعياً لمصالحها في الشرق، بينما نظرت بريطانيا بعين القلق والريبة الى تنامي قوته، خشية ان تهدد طموحاته مصالحها التجارية في البحر المتوسط والطرق المؤدية الى الهند. وهكذا اشتد التنافس بين هاتين الدولتين الاوربيتين (بريطانيا وفرنسا) وبلغت المنازعات الدولية اشدها، فبينما سعت فرنسا الى دعم محمد علي وتقوية مركزه في المنطقة ، سعت بريطانيا لتقييد نفوذه والحيلولة دون قيام امبراطورية قوية قد تعيد رسم موازين القوى في الشرق، وقد اسهم ذلك التنافس في رسم ملامح السياسة الخارجية المصرية خلال عهد محمد علي، واثرها على مسار العلاقات الدولية آنذاك. اعتمدت دراسة البحث على المنهج التاريخي الوصفي والمنهج التحليلي لرصد وتحليل اهم التحديات والصعوبات التي واجهتها مصر في المدة ما بين (١٨٠٥– ١٨٤٨)، فقد كانت تلك المدة من الحقب التاريخية الخطيرة والحافلة بالأحداث ومسرحاً للتسارع و التنافس الدولي الذي شغل السياسيين في بريطانيا وفرنسا والدولة العثمانية ، وقد اخذت حيزاً كبيراً في العلاقات الدولية بشكل عام وبتاريخ مصر بشكل خاص.

المبحث الاول: أوضاع مصر بعد خروج الحملة الفرنسية (١٨٠١ ـ ١٨٠٥):

اثار اختيار نابليون بونابرت مصر عام ١٧٩٨ كنقطة لانطلاقه خارج اوربا، مخاوف بريطانيا بصورة جعلتها تقيم علاقات سياسية مستديمة مع الدولة العثمانية. لتقف بذلك في وجه تلك الانطلاقة. ولتبعد فرنسا من حدود الهند والمداخل البحرية للخليج العربي والبحر الاحمر، الشريان المائي المؤدي الى درة التاج البريطاني (الهند)، كما ادخل احتلال نابليون لمصر العلاقات الفرنسية – العثمانية في مرحلة جديدة، فلم يعد الدور الفرنسي ينحصر على حماية الكاثوليك كما كان سائداً قبل ذلك، بل بدأت المصالح التجارية والمصالح السياسية تأخذ طابعاً مميزاً لتشترك بذلك مع الدول العظمى كبريطانيا وروسيا والنمسا (الروقي، ١٩٨٦، ص ص٤٩ –٥٠). وبذلك عدت الحملة الفرنسية على مصر بمثابة الناقوس الذي نبه بريطانيا الى ما يحيط بمصالحها في الشرق من خطر، كون مصر وطريق البحر الاحمر وقعوا في يد قوة معادية. لذا سعت بريطانيا لتوجيه اهتمامها للسيطرة على اهم المراكز الاستراتيجية في طريق الموصلات الى الهند، ولاسيما طريق البحر الاحمر كونه اسهلها واقصرها (اباظه ، ١٩٨٧، ص ٨١). ومن هنا عدت الحملة الفرنسية على مصر بداية الصراع العلني بين بريطانيا وفرنسا حول طريق البحر الاحمر، ولاسيما مصر. حرصت بريطانيا بعد اخراج القوات الفرنسية من مصر عام ١٨٠١، على ابقاء قواتها لتحل محلهم، رغم ان المعاهدة العثمانية – البريطانية قضت برحيل الفرنسيين عن مصر، الا ان احد شروطها كان يسمح بإمكانية التلاعب بنصوص المعاهدة واكتسابهم حق بقاء القوات البريطانية بموجب النص على ان "**الجيش الانجليزي لا يجلو عن مصر الا بعد ان يستتب الامن في ربوعها**"، وبموجب هذا النص المشروط طال بقاء القوات البريطانية حتى ابرام صلح اميان في السابع والعشرين من آذار ١٨٠٢ بين فرنسا وبريطانيا والمتضمن في احد شروطه ضرورة جلاء البريطانيين من مصر، وبتحريض ومطالبة نابليون بونابرت بريطانيا دولياً بالجلاء عن مصر، ولاسيما بعد عودة مندوبه الكولونيل هوراس سباستياني من مصر، مما اضطر بالبريطانيين للجلاء عن مصر في كانون الاول ١٨٠٢(ابو الفضل، ١٩٩٩، ص ص٥– ٦). وبجلاء البريطانيين فشلوا في تنفيذ خطتهم المبنية على تكوين حزب قوي ومؤثر موال لهم من المماليك ومساندته حتى يمسك بمقاليد الامور في مصر لتحقق بريطانيا اغراضها عن طريقه. الا انهم اصطحبوا معهم عند انسحابهم من مصر محمد الالفي امير المماليك بعد الاتفاق معهم خوفاً من عودة نابليون الى مصر ثانية (اباظه ، ١٩٨٧، ص ص ٨ –١١)سارع العثمانيون الى استعادة السيطرة على مصر بعد انسحاب الفرنسيين، ولاسيما بعد ان دخلها البريطانيون لمدة قصيرة. وقد عين خسرو باشا كأول والٍ عثماني على مصر، الا ان حكمه اتسم بالفساد وسوء الادارة، مما ادى الى تفاقم معاناة المصريين من ظلم الوالي واعوانه. وتزامن ذلك مع ضعف القيادة العثمانية في الاستانة (اسطنبول)، مما ساهم في اضطراب الوضع العام داخل مصر(ابو الفضل، ١٩٩٩، ص٩). وفي ظل ذلك الفراغ، ظهرت قوى محلية متنافسة، اذ خضعت بعض المناطق لسيطرة المماليك تحت قيادة عثمان بك البرديسي ، بينما اذعنت مناطق اخرى لمحمد بك الالفي، في حين برزت قوة ثالثة بقيادة البك الارناؤوطي طاهر باشا. وهكذا دخلت مصر في حالة من الصراع الداخلي بين تلك القوى المتنازعة (قطاوي و قطاوي ، ٢٠٠٨، ص ٤٣) دارت في مصر معارك عدة انتهت بهزيمة الجيش العثماني، مما دفع قائد القوة الالبانية الى العودة الى اسطنبول. وتولى محمد علي قيادة القوات بنفسه، واثبت براعة سياسية واضحة، اذ تصرف بذكاء واتبع اساليب عدة لبسط نفوذه. وقد كشفت تلك المرحلة عن مواهبه القيادية وقدرته على ادارة الموقف بحكمة. وفي الثالث عشر من ايار ١٨٠٥، ومع حدة الاحداث اجتمع وجهاء الشعب والمشايخ ، وقرروا عزل الوالي خورشيد باشا وتعيين محمد علي بدلاً منه ، وبذلك اصبح محمد علي صاحب السلطة الفعلية في مصر، ثم نال اعتراف الدولة العثمانية له رسمياً بمنحه لقب الوالي(كمال، ٢٠٠٣، ص ص ٨–٩).

المبحث الثاني: المواقف السياسية البريطانية ـ الفرنسية تجاه محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٠٧)

لم يكن وصول محمد علي الى الحكم في مصر حدثاً محلياً معزولاً، ولا سهلاً ومباشراً، بل واجه العديد من العقبات والصراعات الداخلية، الى جانب مقاومة كبيرة من المماليك والدولة العثمانية. وعلى الرغم من ذلك، نجح في كسب تأييد العلماء وزعماء الشعب، فتولى الحكم بدعم شعبي واسع، لا من خلال نفوذ خارجي او دعم دولي. ومع ذلك، لم يكن ذلك الصعود بمعزل عن انظار الدول الكبرى، ولا سيما بريطانيا وفرنسا، اللتين راقبا تطور الاحداث عن كثب، نظراً لأهمية موقع مصر الجغرافي بين القارات الثلاث اسيا وافريقيا واوربا، ومعبراً تمر به التجارة العالمية بين الشرق، كما تمثل مركزاً للإنتاج والاستهلاك، فضلاً عن موقعها الاستراتيجي بين البحرين المتوسط والاحمر(Bertrand, 1847,p p32- 33). وفي ضوء ما سبق، يمكن التساؤل عن موقف بريطانيا وفرنسا من وصول محمد علي الى السلطة في مصر؟ بينما سعى محمد علي الى ترسيخ سلطته في الداخل المصري، كانت كل من بريطانيا وفرنسا تحرصان بدورهما على حماية مصالحهما الاستراتيجية، اما بدعم سلطته او محاولة كبح طموحاته، بحسب ما تقتضي حسابات التوازن الاقليمي. لذا في هذه الدراسة، سيتم تحليل مواقف الدولتين من حكم محمد علي من خلال تتبع التغيرات السياسية والدبلوماسية، وعرض السياقات التي اثرت في اتخاذ القرار لدى كل طرف، مع ابراز طبيعة الصراع السياسي الدولي الذي انعكس على مستقبل مصر والمنطقة.

– **بريطانيا:** على الرغم من انسحاب البريطانيين من مصر، لم يكفوا عن التدخل في شؤونها، اذ واصلوا اتصالاتهم بمحمد بك الالفي وقادة التمرد في الجيزة والصعيد، كما استمروا في دعمهم للمماليك المتحصنين في الجنوب. وقد سعى البريطانيون عبر عملائهم في القاهرة الى التحريض ضد محمد علي بالتعاون مع المماليك وبعض الزعامات المحلية والدينية في محاولة لزعزعة سلطته(ابو الفضل، ١٩٩٩، ص١٤) ، وفي خضم تلك التوترات، مارست بريطانيا ضغوطاً مباشرة على السلطان سليم الثالث فأصدر قراراً يقضي بعزل محمد علي من ولاية مصر، وتعيين محمد بك الالفي او اي والٍ عثماني آخر بديلاً عنه، تحت دعوى اعادة الاستقرار وحفظ النظام في البلاد. وتحت الضغط البريطاني ارسلت الدولة العثمانية اسطولاً لمصر يحمل امر تعيين محمد علي والياً على سالونيك في مقدونيا مع تسليم السلطة دون معارضة او مقاومة الى وال عثماني اخر ، الا ان محمد علي تمكن من احتواء الموقف، وتسلم مقاليد الحكم في مصر رسمياً دون معارضة تذكر من جانب السلطة العثمانية او مقاومة من قبل الوالي الجديد في السابع عشر من تموز ١٨٠٦ (فارجيت، ٢٠٠٣، ص ٣٦)لم يهدأ قلق البريطانيين بعد تولي محمد علي الحكم في مصر، اذ شككوا في قدرته على القضاء على الفوضى السياسية الداخلية ، وتأمين البلاد من اي اعتداء اجنبي خارجي، ولاسيما من جانب الفرنسيين. كما نظروا بعين الريبة الى ميل محمد علي لفرنسا، وخشيتهم من ان يشكل ذلك تهديداً مباشراً لمصالحهم في المنطقة. وعلى الرغم من انقسام المماليك وتراجع نفوذهم، فإن البريطانيين تخوفوا من امكانية تحالفهم مع الفرنسيين اذا ما أتيحت لهم الفرصة للعودة الى مصر مجدداً، مما زاد من تحفظهم تجاه استقرار حكم محمد علي في مراحله الاولى(شكري ، ١٩٩٥،ج١، ص ٧٦). لذا سعت بريطانيا لمنع منافستها فرنسا بالظفر بالنفوذ الاعلى في مصر، ودعم مصالحها التجارية والسياسية بها وذلك عن طريق قادتها البريين والبحريين بدأت اوروبا تعيد تشكيل تحالفاتها بعد ان منح نابليون نفسه لقب الامبراطور في أيار عام ١٨٠٤، وازادت مخاوف الدول الكبرى من تمدد نفوذه. وعلى الرغم من ان الدولة العثمانية لم تنضم رسمياً الى التحالف الجديد، فإنها بدأت تميل تدريجياً الى جانب القوى الاوربية المعادية لفرنسا، نتيجة للضغوط البريطانية والروسية التي دفعتها لمنح تسهيلات للدول المتحالفة. وقد سارع السلطان العثماني الى تأكيد موقفه من التحالف الدولي، ولاسيما بعد انتصار نابليون على النمسا في اوسترليتز وخروجها من التحالف، مما مكن الدولة العثمانية من اعادة النظر بعلاقاتها مع بريطانيا وروسيا بشكل اوثق(قاسم، ٢٠٠٩، ص ٤٦). ومع تصاعد التوتر بين بريطانيا والدولة العثمانية، اصدرت بريطانيا اوامرها الى اسطولها البحري للتقدم الى المضايق العثمانية في الخامس عشر من كانون الثاني ١٨٠٧ ، بهدف تهديد الدولة العثمانية وابعاد النفوذ الفرنسي، وبتقدم القوات البريطانية بقيادة الاميرال دوكورث لاختراق الدردنيل فوجئت بالقرب من الاستانة بنيران حامية اصابت الكثير من وحدات الاسطول البريطاني المهاجم، فلم يسع امير البحر سوى الانسحاب بسرعة، اذ لم يكن هناك امل باقتحام الاستانة (المشايخي، ١٩٩٧، ص ١٠٠؛ رفاعي، ، ١٩٦٢، ص ٢٤).

– **الحملة البريطانية على مصر** ١٨٠٧: اثار التقارب بين فرنسا ومصر مخاوف بريطانيا التي ابدت تحفظاً شديداً تجاه سياسة محمد علي. وقد رأت في اعادة المماليك حلفائها التقليديين الى الحكم وسيلة لمواجهة النفوذ الفرنسي. ولكن هذه المرة بموافقة الباب العالي فأسرعت كإجراء وقائي، وبادرت بإرسال حملة بحرية لغزو مصر عرفت بـ "**حملة فريزر**" التي مثلت ذروة ذلك التصعيد السياسي والعسكري(فارجيت، ٢٠٠٣، ص ٣٩) بعد ان تلقت الحكومة البريطانية تقريراً استخباراتياً اعده ضباطها في مصر، وصف فيه المشهد العام بانه يتسم بالاضطراب والانقسام بين العثمانيين والمماليك والوالي محمد علي، رأت بريطانيا ان الفرصة سانحة للتدخل المباشر. واشار التقرير الى إمكانية السيطرة على القاهرة بقوة عسكرية يتراوح عددها بين (٤٠٠٠ – ٥٠٠٠) جندي دون مقاومة تذكر(Mcgregr , 2006, p54). وبناء على ذلك، قرر القادة البريطانيون إرسال حملة عسكرية بقيادة

"**الكسندر ماكنزي فريزر**" بهدف تعزيز نفوذهم في مصر واقصاء الفرنسيين، بعد ان بدأت اطماعهم تتجدد في المنطقة. انطلقت الحملة في السادس عشر من آذار ١٨٠٧، وتكونت من (٦٠٠٠) جندي على متن خمس وعشرين سفينة حربية. بدأت القوات البريطانية باحتلال مدينة العجمي غرب الاسكندرية، ثم تقدمت نحو قلب المدينة وفرضت عليها الحصار. وقد استغل البريطانيون حالة الضعف والانقسام الداخلي، فأشاعوا روح التخاذل بين الاهالي، واستمالوا بعض وجهائهم عبر الرشوة والترغيب، ولاسيما طبقة التجار ذات النفوذ، وقد شكل دور القنصل البريطاني "ادوارد مست" العامل الحاسم في سقوط المدينة، اذ قام برشوة الحاكم المحلي "أمين اغا" الذي لم يكن موالياً لسلطة محمد علي باشا، وسلم مفاتيح المدينة للبريطانيين، وبذلك تم احتلال الاسكندرية دون مقاومة تذكر(شبارو، ١٩٩٢، ص ص١١٤- ١١٥) واجه الجيش المصري بقيادة محمد علي باشا القوات البريطانية المتجهة نحو مدينة رشيد، وذلك بعد تعزيز قوة جيشه وتحجيم نفوذ المماليك، وحصرهم عند الفيوم في الوجه القبلي. حيث اندلعت المعركة بين المصريين والقوات البريطانية عند رشيد في الحادي والعشرين من نيسان ١٨٠٧، وكان النصر فيها لمحمد علي ، فأضطر البريطانيون للتراجع نحو الاسكندرية. وشدد الباشا الحصار على المدينة وكاد الجوع يفتك بجنودهم. فاثروا عندئذ مفاوضته والخروج من الاسكندرية في التاسع عشر من ايلول ١٨٠٧ (خوري واسماعيل، ١٩٥٩، ج ١، ص٢٢٨). فضلاً عن شعور البريطانيين بالصدمة اصيبوا بالإحباط لاعتمادهم على مساعدة المماليك بزعامة الالفي الذي توفي قبل مجيء حملة فريزر بأربعين يوماً ولم تكن بريطانيا تعلم بذلك. وهكذا، اجبر البريطانيون على الانسحاب لتنتهي حملة فريزر بعد اربعة اشهر فقط دون ان تحقق أهدافها العسكرية او السياسية(فارجيت، ٢٠٠٣، ص٤٠)شكل فشل حملة فريزر ضربة قوية للنفوذ البريطاني في المنطقة، اذ تكبدت خسائر بشرية فادحة، وتعرضت خططها العسكرية والسياسية للانهيار. فقد عجزت عن تحقيق أهدافها في احتلال مصر، او استعادة مكانتها المفقودة امام الدولة العثمانية، فضلاً عن فشلها في تأمين طريق المواصلات الاستراتيجي المؤدي للهند. مما زاد من وطأة ذلك الاخفاق ان بريطانيا كانت تمتلك آنذاك السيادة البحرية الكاملة في البحر المتوسط، مما جعل فشلها في مصر انتكاسة لا تغتفر سياسياً واستراتيجياً.

– **فرنسا:** اتصفت العلاقة بين فرنسا ومصر بكونها ضعيفة، ولاسيما بعد الحملة الفرنسية (١٧٩٨ – ١٨٠١) وما خلفته من نتائج سلبية على طبيعة العلاقة بين البلدين، اذ كانت مصر تنظر لفرنسا بانها دولة محتلة. وبمجيء محمد علي للحكم اخذت سياستها تنتهج شكلاً آخر، اذ اعترفت بمحمد علي والياً على مصر لارتباطها بمصر بعلاقات تجارية وثقافية، فضلاً عن اطماعها (الاستيلاء على تجارة الشرق وحرمان البريطانيين منها عن طريق تحويلها الى طريق مصر) التي تعود الى زمن طويل. ومن جانب اخر كانت فرنسا تتطلع الى ان تلعب دوراً جديداً في مصر من خلال الدعم والمساندة التي تقدمها الى محمد علي بتوليه زعامة مصر، كونها تسعى لكسب مصر سياسياً واقتصادياً من اجل تحقيق مصالحها ولمواجهة الاطماع البريطانية(كمال، ٢٠٠٣، ص٢٦). فقد كان لممثلها القنصل المسيو دروفيتي دور كبير لتحسين العلاقة ، اذ لم يكن لمحمد علي باشا اي دراية بالسلك الدبلوماسي او السياسة الخارجية ، الا انه كان مدركاً لمسؤولياته تماماً وكان لدروفيتي اثر كبير في توسيع مدراك محمد علي في شؤون السياسة الاوربية(فارجيت، ٢٠٠٣، ص٣٩). وقد تبين ذلك من خلال الحملة البريطانية ١٨٠٧ اذ كان دروفيتي في الاسكندرية ومن ثم غادرها الى الرشيد ومن ثم للقاهرة فاشترك في تنظيم وسائل الدفاع عنها(الرافعي، ١٩٨٩، ص٦٦) سعى محمد علي بعد هزيمة الحملة البريطانية على مصر، الى استغلال التنافس بين بريطانيا و فرنسا لصالحه، من دون ان يعد نفسه تابعاً لأي منهما او أداة بيد مصالحهما المتضاربة. بل عمل على العزف على هذا الوتر، مستفيداً من تناقض توجهاتها لترجيح كفته وترسيخ نفوه في مصر. وبما يتمتع به من حنكة سياسية لم يقطع علاقاته ببريطانيا على الرغم من تقاربه مع الفرنسيين ، بل حرص على تقديم خدمات متبادلة، اذ زود القوات البريطانية اثناء حملتها في اسبانيا ضد نابليون، كما عرض عليها ضمان طريقها الى الهند في خطوة تظهر رغبته في كسب ثقة الطرفين دون الانخراط الكامل مع اي منهما(فارجيت، ٢٠٠٣، ص ٤١) وبذلك يمكن القول، ان فشل حملة فريزر البريطانية على مصر عام ١٨٠٧، قد وجه ضربة كبيرة لنفوذها في المنطقة، فقد كبدها خسائر بشرية كبيرة. وافشل مخططاتها العسكرية والسياسية الرامية الى اخضاع مصر، كما حال دون استعادة مكانتها المفقودة امام الدولة العثمانية ، وفقدت في ذات الوقت سيطرتها على مصر وعلى طريق المواصلات الحيوي المؤدي الى الهند. على الرغم من احتفاظها بالسيادة البحرية الكاملة في البحر المتوسط.

المبحث الثالث: التوسع الاقليمي لمحمد علي باشا في ضوء التنافس البريطاني الفرنسي

اولاً: حملة محمد علي على الجزيرة العربية (الحرب الوهابية ١٨١١- ١٨١٩) : ظهرت الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية في منتصف القرن الثامن عشر على يد محمد عبد الوهاب في منطقة نجد. ودعت الى تنقية العقيدة الاسلامية مما عدته "**شرك**" وخروجاً عن التوحيد الخالص. وجدت تلك الدعوة دعماً سياسياً بتحالفها مع محمد بن سعود . مما منح الحركة كيان سياسي وعسكري سرعان ما وسع نفوذه داخل شبه

الجزيرة العربية. كما تميزت مراحل التوسع الوهابي بالعنف في فرض رؤيتها الدينية، وقد تبين ذلك باجتياح كربلاء عام ١٨٠١، اذ تم تدمير ضريح الامام الحسين (عليه السلام) وقتل آلاف المدنيين مما اثار غضباً واسعاً في العالم الاسلامي(الرافعي ، ١٩٨٩، ص٦٦؛ ابو الفضل، ١٩٩٩، ص ص ٦٥-٦٧). ومع تفاقم خطر الوهابيين وعدم اعترافهم بسلطة السلطان العثماني عليهم، الى جانب ذلك، تابعت بريطانيا ذلك المد الثوري المنذر بالخطر فقدمت شكوى الى الباب العالي اعربت فيها عن مخاوفها بان سفنها التجارية في الخليج العربي اصبحت معرضة للخطر وهدد الاسطول البريطاني بالعودة الى البحر الاحمر. مما دفع بالدولة العثمانية بتكليف واليها في مصر محمد علي باشا بمهمة القضاء على الحركة(فارجيت، ٢٠٠٣، ص ص٦١- ٦٧) بعد القضاء على الحركة الوهابية من قبل محمد علي باشا، لم تبالي بريطانيا بالنفوذ الكبير لمحمد علي في العالم الاسلامي، الا انها لم تكن لتتغاضى عن تنامي نفوذه، ولاسيما في اجزاء من ساحل الخليج العربي في القرن التاسع عشر، مما منح محمد علي مكانة استراتيجية في الخليج العربي. جعلها تنظر تجاه محمد علي بعين الشك والريبة، وقد ساعد على ذلك علاقاته الجيدة والمميزة مع فرنسا، وقد اثار ذلك التوسع قلق السياسة البريطانية التي رأت في تمدد نفوذ محمد علي تهديدا كبيراً لمصالحها في الخليج العربي. لذا سارعت لتفرض سيطرتها الكاملة على سواحل الخليج العربي، كما ان امتداد ذلك النفوذ من ناحية اخرى الى بلاد اليمن قد دفع بريطانيا لبذل كل جهودها من اجل تأمين المدخل الجنوبي للبحر الاحمر(ابو الفضل، ١٩٩٩، ص٩). فأرسلت بريطانيا الكابتن سادلير للتفاوض مع ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا الذي اكد له بانه لا يعترف بأية حقوق للحكومة البريطانية في بلد اخضعه للسيادة العثمانية. وفي اليمن قوبل النشاط المصري بالاعتراض من قبل بريطانيا، ولاسيما في المدة الممتدة ما بين (١٨١٤- ١٨١٩). وظلت بريطانيا ترصد بحذر شديد تحركات محمد علي في الخليج العربي التي تمثل قلقاً لبريطانيا والهند(زيان، ٢٠١١، ص٣٩).

ثانياً: حملة السودان (١٨٢٠- ١٨٢٣):

سعى محمد علي باشا بعد القضاء على الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية وتثبيت حكمه في مصر، لتنفيذ سياسة توسعية هدفها توسيع نفوذه السياسي والاقتصادي، وذلك بإنشاء امبراطورية عربية كبرى تمتد من جنوب شرق افريقيا الى الشمال نحو سواحل البحر الابيض المتوسط. وقد اقتضى ذلك المشروع التوسعي عملية عسكرية اضافية باتجاه اعماق افريقيا، الا ان بريطانيا التي كانت تمتلك خططاً استراتيجية في المنطقة، اعربت عن استيائها من ذلك التوسع عن طريق ممثلها في مصر "هنري سولت"، ولاسيما بعد ان تبين لها ان محمد علي يخطط لتوسيع نفوذه الى اراض تضم اقليات مسيحية، وهو ما اثار تخوفها من سقوط تلك المناطق (الحبشة) في ايدي المسلمين(فارجيت، ٢٠٠٣، ص٦١- ٦٧؛ قطاوي و قطاوي ، ٢٠٠٨، ص ٧٦). في المقابل، واجه محمد علي تلك المعارضة بنظرته العلمية معلناً من غير تردد انه "**على الرغم من ان هذه المنطقة تفيض ذهباً ومجوهرات. وان فتحها مؤكد فأنه (يختار) التخلي عنها محافظة على علاقته ببريطانيا العظمى** " لذا وجد انه من الافضل الاكتفاء بالسيطرة على السودان. ومن هنا انطلقت الحملة نحو السودان في عام ١٨٢٠ بقيادة ابنه اسماعيل باشا بتكليف مباشر من محمد علي(الغنام ، ٢٠٠٤، ص ٦٦). لم تكن هناك قوة اقليمية مجاورة تشكل تهديداً عسكرياً على مصر، ولاسيما بعد ان فشلت الدولة العثمانية من ان تشكل خطراً على محمد علي باشا والاطاحة به، فضلا عن مواجهة التحديات لضعف جيوشها وتفشي الفساد والفوضى في جميع مؤسساتها، ولاسيما في الجيش. كما برز محمد علي باشا آنذاك كقوة صاعدة تهدد ميزان القوى في المنطقة، مما اثار مخاوف الدول الاوربية، ولا سيما بريطانيا العظمى من طموحاته العسكرية والتوسعية التي قد تغير موازين القوى. لذا مثلت بريطانيا الخطر الحقيقي بالنسبة لمحمد علي باشا، بينما اتخذت فرنسا موقفاً مغايراً فقد تضاءل خطرها العسكري بعد خروج نابليون بونابرت وتراجع نفوذه تماماً بعد هزيمته في معركة واترلو عام ١٨١٥ وعودة آل بوربون الى العرش الفرنسي، واضحى أملها في استعادة نفوذها في مصر مرتبطاً فقط بتأثيرها الثقافي وجهود بعثاتها الدبلوماسية(الغنام ، ٢٠٠٤، ص ٧٩). ان تنامي قوة محمد علي باشا ومحاولته مد نفوذه خارج حدود مصر والانتصارات التي احرزتها قواته في شبه الجزيرة العربية، له اثر بالغ مع تزايد العداء ضده، فقد شكلت طموحاته وتوسعاته خطراً كبيراً على المصالح البريطانية في المنطقة، ولاسيما نحو الهند والخليج العربي. مما دفع الدول الاوربية ولاسيما بريطانيا للعمل على السيطرة على محمد علي وعرقلة تطور مصر.

ثالثاً: حرب اليونان(١٨٢١ - ١٨٢٧):

كانت اليونان حتى اوائل القرن التاسع عشر جزءاً من الدولة العثمانية، يحكمها ولاة اتراك ترسلهم حكومة الاستانة، الى ان اندلعت الثورة الاهلية هناك(الرافعي ، ١٩٨٩، ص١٨٩) ، اذ قامت تلك الثورة في شمال اليونان في الخامس والعشرون من آذار ١٨٢١، بعد ان نجحت شعوب البلقان الاخرى في الانفصال عن الدولة العثمانية. وسرعان ما امتدت الثورة الى جنوب البلاد، فوصلت الى شبه جزيرة المورة عام ١٨٢٢ ، مما دفع السلطان العثماني محمود الثاني الى ارسال جيشاً بقيادة خورشيد باشا لقمعها لكنه فشل في اخمادها. ومع تصاعد الاحداث، ثارت جزر الارخبيل اليوناني

واعلنت استقلالها(قطاوي و قطاوي ، ٢٠٠٨، ص ٨١)، الامر الذي جعل السلطان يطلب دعم والي مصر محمد علي باشا لإخماد الثورة مقابل منحه حكم جزيرتي كريت و المورة. وكان محمد علي باشا قد انشأ ترسانة لبناء السفن الحربية في الاسكندرية لدعم اسطوله (ابو الفضل، ١٩٩٩، ص١٤٢)اصدر السلطان في السادس من آذار ١٨٢٤ فرماناً الى محمد علي باشا بتعيين ابراهيم باشا والياً على جزيرتي كريت و المورة، وبذلك جهز محمد علي جيشاً بقيادة ابنه ابراهيم باشا واسطولاً بقيادة محرم بك فتمكنا في عام ١٨٢٥ من الوصول الى مورة والسيطرة عليها ثم توجه شمالا بمساعدة القائد رشيد باشا فحاصر ميسولنجي التي سقطت بعد مقاومة عنيفة عام ١٨٢٦ ، ثم واصل زحفه حتى استولى على اثينا عام ١٨٢٧. وبالتعاون مع القوات العثمانية استطاع ابراهيم باشا من اخماد معظم الثورة في مختلف المناطق. وكاد ان يقضي عليها لولا تدخل الدول الاوربية فأخذت المسألة شكلاً جديداً قلبت الاحداث رأساً على عقب. وبالتالي كان انتصار الدولة العثمانية وحليفها محمد علي باشا في الحرب اليونانية يعني ان شرق البحر المتوسط سيكون بحيرة مصرية، اذ تصبح جزيرة كريت محطة استراتيجية للأسطول المصري في طريقه بين سواحل الاسكندرية والسواحل الجنوبية لليونان التي ستنتهي ادارتها الى ابراهيم باشا، مما دفع الدول الاوربية الى التدخل بحجة حماية الحرية اليونانية، في حين كان هدفها الحقيقي منع مصر من الانفراد بالسيادة في البحر المتوسط (صبري ، ١٩٧٢، ص ص ٦٢ -٦٣).ايد الرأي العام الاوربي الثورة اليونانية، ولاسيما فرنسا وبريطانيا، مستنكرين الطريقة الوحشية التي استخدمها الجيش المصري والعثماني في إبادة الثوار اليونانيين. الا ان فرنسا كانت منقسمة بشأن الموقف الذي عليها اتخاذه، وذلك لعلاقاتها المتميزة مع مصر. فقد اعتقد بعض الدبلوماسيين الفرنسيين مثل الكونت جوردان بضرورة تشجيع الاستقلال المصري واليوناني على حد سواء، ليكون نقطة ارتكاز للنفوذ الفرنسي في البحر المتوسط (كورخان، ٢٠١٥ ، ص ٢٢١). وامام تعالي الاصوات في فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا لدى محمد علي باشا مطالبة بوقف تلك المجازر، معتبرين انه الرجل الذي يمتلك مفاتيح الحل، وكان ذلك اول اعتراف بالدور المتنامي الذي بدأ يمارسه على الصعيد الدولي. ففي عام ١٨٢٦، اشار رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك دوفيليل الى ضرورة اقناع محمد علي بالانسحاب من المورة، والبحث عن مكان بديل آخر لتعويضه عنها ولتكن سوريا، وتبنى السفير البريطاني ستراتفورد كايننج موقفاً مشابهاً مقترحاً وساطة بريطانية بين العثمانيين واليونانيين وتعيين ابراهيم باشا والياً على سوريا، وازاء ذلك ، اختار محمد علي اتباع سياسة حذرة، مدركاً ان الدول العظمى ترى فيه الرجل القوي في المنطقة، لذلك عليه ان يقرر اما ان يستمر في دعم واسناد السلطان او على العكس يقف ضده و يسعى للاستقلال بمساعدة الدول العظمى، مدركاً ان السلطان محمود الثاني لن يرحمه وسيكون انتقامه لا رجعة فيه اذا حاول المساس بسيادة الامبراطورية العثمانية(فارجيت، ٢٠٠٣، ص ص ٨١-٨٢). فضلا عن ذلك، خشيت بريطانيا تطور حرب اليونان الى حرب بين الدولة العثمانية وروسيا من جهة، ومن جهة اخرى تعزز موقف بريطانيا التفاوضي اثر هزيمة اليونانيين المدعومين من روسيا، لذلك بعث الدوق ولينغتون الى بطرسبرغ للتفاوض مع الروس حول المسألة اليونانية وتمخض عن تلك المفاوضات اتفاق الرابع من نيسان ١٨٢٦، متضمناً تحقيق مصالح بريطانيا في البحر المتوسط، وأولها ان لا يكون لروسيا قاعدة أو نفوذ مباشر في احد البلدان المطلة على سواحله. ونتيجة لذلك طلبت بريطانيا من السلطان العثماني ان يتفاهم مع القيصر، الا ان السلطان رفض ذلك(خوري و اسماعيل، ١٩٦٠، ج ٢، ص ٣٠). فواصلت بريطانيا جهودها الدبلوماسية وتمكنت في العام التالي من ابرام اتفاقية جديدة في لندن في السادس من تموز ١٨٤٧، مع كل من فرنسا وروسيا. نصت على التدخل بين الدولة العثمانية واليونان بحيث تمنح اليونان استقلالها داخلياً مع بقائها تحت السيادة الاسمية للعثمانيين. كما طالبت الدول العظمى بوقف فوري للقتال بين الجانبين الى ان يتم الاتفاق النهائي، وابلغوا السلطان العثماني بتلك الشروط وفي حالة رفضه لها خلال شهر فسيقابل باستخدام القوة المسلحة تقوم به الدول الكبرى(الرافعي، ١٩٨٩، ص ٢٠٤)قبل وصول رد السلطان العثماني ، بادرت الدول الثلاث الكبرى (بريطانيا وفرنسا وروسيا)، الى ارسال اساطيلها الى المياه اليونانية، امام نافارين موجهة تهديداً بالتدخل العسكري سواء بموافقة السلطان العثماني او بدونها. وفي ذات الوقت لمنع وصول تعزيزات مصرية لدعم القوات المصرية والعثمانية بقيادة الاميرال طاهر باشا مؤلفة من ٢٣ سفينة، وتولى ابراهيم باشا القيادة العامة للقوات المصرية البرية والبحرية، الا ان تلك القوات وصلت الى نافارين في غفلة من اساطيل الحلفاء، التي كانت اساطيلهم ترابط حول الموانئ التي تحصن بها الثوار اليونانيين في جزيرتي هيدرا وترميا، وقد اكتفت تلك الاساطيل بمراقبة تحركات الاسطولين المصري والعثماني بهدف منع وصولهما الى سواحل اليونانية (ابو الفضل، ١٩٩٩، ص ١٣٢). وهكذا تم التواطؤ ضد الباب العالي وجيش محمد علي، فاستغل جيش الحلفاء المتواجد في المياه اليونانية بقيادة الاميرال البريطاني كودرينجتون حادثة اطلاق نار عفوية من قبل الجيش المصري، فشن اسطول الحلفاء هجوماً صاعقاً على الاسطول المصري في نافارين فدمره تماماً في العشرين من تشرين الاول ١٨٢٧، وهكذا انتهت المعركة بتدمير جميع السفن المصرية والعثمانية (الغنام ، ٢٠٠٤، ص ص ٩٢- ٩٣؛ Shaw, 1977, Vol. 2, p18). ثم اخذت دول الحلفاء تستعد لإرسال جيش بري لطرد الجيوش العثمانية والمصرية من اليونان، وقد تواصلت بريطانيا وفرنسا مع محمد علي باشا واتفقا معه على سحب جيوشه في الثالث من آب ١٨٢٨ والجلاء

عن مورة فأذعن الوالي وامر ابنه ابراهيم بالجلاء(صبري ، ١٩٧٢، ص ٦٤). وبالتالي، كان تدمير الاسطول المصري نعمة لبريطانيا التي وجدت في ذلك فناء لأشهر واقوى اسطول عربي في البحر المتوسط. بينما ادركت فرنسا انها خسرت اكثر مما كسبت في صراع لا ناقة لها فيه ولا جمل، وبذلك حققت بريطانيا مكسبا لها على حساب العلاقات الفرنسية المصرية ، لذا لابد لفرنسا من توثيق علاقاتها مع محمد علي من جديد(كورخان، ٢٠١٥ ، ص ٢٢٦) لم تكن المسألة اليونانية مجرد حدث عابر انتهت اثاره بعد واقعة نافرين عام ١٨٢٧، بل مثلت بداية سلسلة من التطورات ادت الى استقلال اليونان عن السلطة العثمانية ، كما شكلت منعطفاً خطيراً في مسار احداث المنطقة ، اذ اعادت رسم موازينها السياسية وايجاد ما يعرف بالمسألة الشرقية.

رابعاً: التوسع نحو الشام :

كان لخسارة اسطول محمد علي في واقعة نفارين وسحق قواته في العشرين من تشرين الاول ١٨٢٧، السبب المباشر بمطالبة محمد علي بسوريا تعويضاً عن خسائره في اليونان(دسوقي ، ١٩٧٦، ص ص ١٦٣ – ١٦٤). ولاسيما وانه عد سوريا الامتداد الطبيعي لتأمين مصر من ناحية الدولة العثمانية لضمان بقاءها مستقلة عنها فضلاً عن اسباب عدة نحن في غنى عن ذكرها(ابو الفضل، ١٩٩٩، ص ١٦٩)فأيقن محمد علي باشا بغزوه لسوريا سيواجه عداءً مستحكماً من الباب العالي وانه سيقف له بالمرصاد على الرغم من حالة الضعف التي تمر بها الدولة العثمانية، ولاسيما بعد ان انهكتها حروبها مع اليونان ومن ثم روسيا عام ١٨٢٩، كما سعى لحياد الدول العظمى، فعلى الرغم من نتائج موقعة نفارين السيئة، الا انه تمسك بالحكمة في عدم اظهار مرارته وألمه. فإن العلاقات مع فرنسا اصبحت جيدة ولم يرغب محمد علي التورط بصورة غير مباشرة في الجزائر كي لا تحدث له خسائر من جانب الدولة العثمانية وبريطانيا، اذ ان بريطانيا متحفظة تجاه محمد علي كونه صديق لفرنسا، وعدم ثقته تجاه توسعاتها في البحر الاحمر، فضلا عن ذلك ، فإن بريطانيا سعت للحفاظ على مركزية الدولة العثمانية لإبعاد خطر روسيا نحو شرق البحر المتوسط، وقد ايدت فرنسا الموقف البريطاني، الا انها كان لها مصالح اخرى تمثلت بحماية الاقلية المسيحية في سوريا ولبنان، ولاسيما بعد عودة الملكية والسلطة الكاثوليكية الى فرنسا(فارجيت، ٢٠٠٣، ص ١٣٥)وعلى ذلك الاساس، ارسل محمد علي باشا حملة قوامها (٣٠) الف جندي بقيادة ابنه ابراهيم باشا الذي سار من مصر في التاسع والعشرين من تشرين الاول ١٨٣١ واحتل غزة ويافا وحيفا، ثم حاصر عكا ودخلها بعد ستة اشهر سانده بذلك الامير بشير الشهاب الثاني كبير امراء لبنان(شبارو، ١٩٩٢، ص ١٣٢؛ oztuna& Mahmd , 1989. P 102). وقد شجعت فرنسا آنذاك خطته في السيطرة على سوريا لتشغل الدولة العثمانية عن سياستها الاستعمارية في الجزائر(صبري ، ١٩٧٢، ص ٦٦). بينما بقيت بريطانيا كالمتفرج تجاه الحملة على الرغم من بلوغ اسطول محمد علي على مرأى ومسمع من الاسطول البريطاني في شرق البحر المتوسط، وكأن المنطقة التي يتحرك اليها الاسطول ليست ذي اهمية مع انها في واقع الامر تشكل اهم معبرين رئيسيين نحو مستعمراتها في الشرق، ولاسيما الهند. وكان ذلك الموقف سلبي في ظاهره الا انه في حقيقته موقف ايجابي مؤيد لتلك الحملة، فتفوق جيش محمد علي واسطوله على جيش السلطان واسطوله امر مفرغ منه، فذلك الامر لا يحتاج الى تدخل الاسطول البريطاني بشكل مباشر(الرافعي ، ١٩٨٩، ص ٢٨٥). وعلى الرغم من محاولات السلطان العثماني المتعددة لإقناع بريطانيا بإيقاف جيوش محمد علي منذ بدء الحملة، لكن تلك المحاولات باءت بالفشل، اذ رفضت بريطانيا وبشكل قاطع، وذلك ليس بسبب انشغالها بمشاكلها الداخلية او لانشغالها بالمسألتين البرتغالية والبلجيكية، بقدر ما هو نتيجة لظروف الازمة نفسها، فأن اي تدخل بريطاني في تلك المرحلة الى جانب السلطان العثماني هو في مصلحة روسيا ، وفي ذات الوقت اعتراف بمعاهدة أدرنه ومن جانب اخر فإن بريطانيا لو اعلنت رسمياً وقوفها الى جانب محمد علي فإن ذلك يعني تقسيم الامبراطورية العثمانية وربما يقود الى حرب مع روسيا وما يترتب على ذلك من مضاعفات على الساحة الاوربية(Watson ,1967, p 302). الا ان محمد علي صدم بريطانيا صاحبة نظرية التكامل السياسي بالنسبة للدولة العثمانية اذ خيل للعالم ان الضربة القاضية لتفكيكها اصبحت وشيكة الوقوع، ولاسيما بعد سقوط عكا في السابع والعشرين من ايار ١٨٣٢ ، والتي عجز عنها نابليون بونابرت(شبارو، ١٩٩٢، ص ١٣٢) فأضطر السلطان العثماني مرغماً الى اللجوء الى قيصر روسيا، فطلب رسمياً في الثاني من شباط ١٨٣٣، إرسال (٣٠) الف جندي روسي تأتي عبر الدانوب للدفاع عن العاصمة العثمانية (الغنام ، ٢٠٠٤، ص ١١٤) ، و ازاء التدخل الروسي ولكي لا تعترض سياستهما واطماعهما في هذه المنطقة، بادرتا كل من فرنسا وبريطانيا ببذل جهودهما لوقف تقدم الجيش المصري لكي لا تجد روسيا مسوغاً لها بحجة حماية الدولة العثمانية من الغزو المصري، ولم تقصد فرنسا ولا بريطانيا من ذلك التدخل مصلحة الدولة العثمانية ولا مصلحة مصر بل لتحقيق اغراضهما، وقد استغلت فرنسا علاقاتها الجيدة مع محمد علي وسعت لإقناعه بمزايا تسوية الخلاف بينه وبين السلطان محمود الثاني، فقد اوفدت الى اسطنبول الاميرال روسان ليسعى في انهاء الخلاف وبالتالي منع التدخل الروسي(ابو الفضل، ١٩٩٩، ص ١٨٦؛ Watson ,1967, p 302). وفي العشرين من شباط عبر الاسطول الروسي البسفور وهنا توقف زحف جيوش محمد علي (سليمان الغنام، ٢٠٠٤، ص ١١٥)، ومع

استمرار المحاولات البريطانية والفرنسية تمكنا من اقناع محمد علي باشا والسلطان العثماني من توقيع صلح كوتاهية في الرابع من ايار ١٨٣٣، والتي سيطر بموجبها محمد علي على كل من مصر والجزيرة والسودان وكريت وعين حاكما على بلاد الشام(BedeviKuran , 1948, p8). وبذلك تداخلت تلك الخطوة بوضع الامير بشير الشهابي الثاني القلق في جبل لبنان، لتصبح فيما بعد عنصراً رئيساً في تفجير الصراع الدولي في المنطقة، ضمن اطار المسألة الشرقية(طربين ، ١٩٦٦ ، ص ٤٥). وقد ظهر ذلك الصراع واضحاً من خلال الموقفين الفرنسي والبريطاني بالنسبة لحملة محمد علي في سوريا. والذي لخصه مترنيخ مستشار النمسا بقوله" **ان انكلترا ترغب في الحد من قوة الباشا وفرنسا تهدف الى المحافظة على هذه القوة ان لم نقل تنميتها**" (شبارو ، ١٩٩٢، ص ١٣٢)كان الهدف من معاهدة كوتاهية تجميد الازمة السورية وتنظيم العلاقة بين السلطان العثماني ومحمد علي باشا، الا ان انتصارات محمد علي العسكرية والدبلوماسية ، منحتها بعداً جديداً في تاريخ العلاقات بين الدول الاوربية وبين الامبراطورية العثمانية. فقد وجدت روسيا في تلك المعاهدة اكثر وسيلة لدعم سياستها في الشرق وتأييد اراءها في شؤونه، كما رأت محمد علي تهديداً لمكانة السلطان العثماني وخطراً على توازن القوى في المشرق، لذلك وقفت الى جانب السلطان ودعمه سياسياً، ادراكاً منها ان محمد علي قد يشكل سيف مسلط على الباب العالي في أي وقت، لذلك سعت لمساندة السلطان لتأمين مصالحها وتجنب الاخطار باتجاه البسفور(خوري و اسماعيل، ١٩٦٠، ج ٢، ص ١١٣)بالنسبة لبريطانيا ، حرص محمد علي باشا على ارضاء بريطانيا والسير ضمن توجيهاتها، غير ان بريطانيا كدولة عظمى لم تكن لتسمح بأن تتعارض مصالحها الحيوية مع طموحات رجل واحد أللامحدودة في اقامة امبراطورية عظمى. لذلك لم يرغب محمد علي في ان تكون نتائج حملته على سوريا مشابهة لحملة اليونان. الا ان الاستراتيجية البريطانية في المنطقة بقيت ولم تتغير لا قبل حملة محمد علي على سوريا ولا بعدها ، اذ تمثلت كما سبق القول، في الحفاظ على الدولة العثمانية بشكلها القائم، وضمان أمن المضايق، وعدم السماح لقوة خارجية او محلية بالسيطرة على مصر وسوريا، فقد كتب وزير الخارجية البريطاني بالمرستون الى السفير في باريس جرانفيل ليفيسون–جوير " يجب ان نطلب من محمد علي ان ينسحب الى مصر ... فامتلاك سوريا سيجر معه بالضرورة امتلاك بغداد، وتكفي نظرة واحدة على الخريطة لبيان ذلك ولكن من المشكوك فيه للغاية ان يكون من مصلحة انجلترا إضعاف السلطان الى هذا الحد وان تنشأ دولة جديدة في مصر وسوريا وبغداد . فمن الواضح ان استقطاع هذا القدر الكبير من الاراضي وموارد السلطان سوف تجعله اعجز مما هو عليه بالفعل عن مقاومة روسيا، وسيصبح تابعاً لها ... وليس هذا بالقطع ما نتمناه"(فهمي ، ٢٠٠١، ص ٣٨٧)اما فرنسا، فعلى الرغم من كونها حليف لمحمد علي وداعمة لجهوده في بناء جيشه وتحديث دولته ، إلا إنها تدرك جيداً انها لم تكن قادرة على مجابهة بريطانيا او مجاراة نفوذها في المشرق، ولاسيما في مصر. بسبب ضعفها بعد هزيمة امبراطورها الكبير نابليون بونابرت عام ١٨١٥ ، والازمات الداخلية التي شلت قدرتها على التأثير الفعال في الازمة المصرية – العثمانية (البطريق ، ١٩٧٤، ص ٢٦)سعى محمد علي باشا بعد عقد معاهدة اسكلاسي بين الدولة العثمانية وروسيا عام ١٨٣٣، وما نتج عنها من توتر كبير بين بريطانيا وروسيا، الى استغلال الفرصة وتسوية علاقته بالسلطان العثماني. فطلب اجراء مفاوضات عام ١٨٣٦ مقترحاً تقديم مبلغ ٦٠٠ الف كيس من المال مقابل الاعتراف بحقه في وراثة حكم مصر وسوريا، غير ان السلطان رفض ذلك العرض، كون المسألة دولية. اما بريطانيا فقد تعاملت تجاه تهديدات محمد علي بالاستقلال بعنف، اذ كتبت وزارة الخارجية البريطانية الى قنصلها العام في مصر الكولونيل كامبل "اذا حاول محمد علي ان يضع ما قال موضع التنفيذ، واذا نتج عن هذا التنفيذ قيام حرب بينه وبين السلطان، فإن بريطانيا مصممة على الوقوف جنباً الى جنب مع محمود الثاني لتساعده على فرض القانون والنظام وازالة كل حيف لحق او يلحق به وبحقوقه"(Dodwell, 1931, p171). وبعد عامين ، وجد محمد علي نفسه امام وضع معقد وخطير سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي. ففي الداخل اشدت الثورات وحركات العصيان في سوريا، وتعددت الطوائف المناهضة لحكمه، الامر الذي جعله في عزلة سياسية واضحة. اما في الخارج، فقد باتت علاقاته مضطربة، واصبح مستقبله السياسي مهدداً. ففي الخامس والعشرين من ايار ١٨٣٨ ابلغ قنصلي بريطانيا وفرنسا عزمه على الاستقلال وفي اليوم التالي ابلغ قنصلي روسيا والنمسا بالأمر نفسه. فقد كان هدف ذلك البلاغ ان تتدخل الدول الاوربية بينه وبين السلطان لتسوية عادلة، فيعدل عن الاستقلال مقابل الاعتراف له بحق الوراثة، فادرك مترنيخ اللعبة فكتب الى سفيره في باريس ان الباشا "يلعب مع الدول لعبة سياسية من الطراز الشرقي". لذا قررت الحكومة البريطانية ان تقف من مطاليب محمد علي باشا موقفاً سلبياً، فقد رأت ان مصالحها في الشرق مهددة من قبل روسيا ومحمد علي ومن ورائه فرنسا، فخشيت ان يؤدي اي صدام بين محمد علي والسلطان العثماني الى انهيار الجيوش العثمانية، فتستغل روسيا الموقف للسيطرة على الاستانة والتغلغل في دمشق، لذلك سعت بريطانيا الى اتفاق ثنائي مع فرنسا لدعم السلطان العثماني عسكرياً اذا تعرض لهجوم، ولكن فرنسا رفضت تقييد نفسها به. عندها طرحت بريطانيا اتفاقاً خماسيا يضم كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا وبروسيا والدولة العثمانية، هدفه حماية السلطان ومنع الاعتراف باستقلال محمد علي. الا ان فرنسا رفضت الاتفاق، بينما كانت غاية بريطانيا والنمسا منه الحد من نفوذ فرنسا في المسألة الشرقية(خوري و اسماعيل، ١٩٦٠، ج ٢، ص

١٣١). وعلى اثر ذلك ، ارغم محمد علي على سحب الاعلان عام ١٨٣٨ وبحضور القنصل البريطاني كامبل والروسي ميديم(Anderson , 1966, P. 93)إثر توقيع معاهدة اسكلاسي بين روسيا والدولة العثمانية والتي وضعت هذه الاخيرة تحت النفوذ الروسي، فإن بريطانيا استمرت في دعم السلطان العثماني من خلال الاعداد والتدريب، وقد اتسم ذلك التعاون بالتحفظ والحيطة من قبل بريطانيا، وفي ظل التشابكات السياسية المعقدة في الشرق وما انطوت عليه من ابعاد داخلية ودولية، برزت تطورات جديدة كان ابرزها توقيع الاتفاقية التجارية العثمانية – البريطانية في السادس عشر من اب ١٨٣٨، اذ منحت الاتفاقية بريطانيا امتيازات واسعة، فقد اصبح لها حرية التجارة في جميع انحاء الدولة العثمانية بما فيها مصر وسوريا، وحرم بذلك الاحتكار في العالم، فأبدى محمد استعداده لتطبيقها في المناطق الواقعة تحت سيطرته، وايضاً عدت الاتفاقية خطوة ايجابية لإضعاف محمد تمهيداً لضربه(Watson ,1967, p 302) وامام تلك التطورات، ومع تأزم موقف محمد علي في الساحة السورية، وتجدد الثورات والاضطرابات، وتشكيل اللبنانيون جيشاً (جيش الخلاص) واعلان الثورة في ايار ١٨٤٠ ضد حكم محمد علي، قررت بريطانيا تجريد مصر من اسطولها البحري. فقام الاسطول البريطاني بقيادة الاميرال شارلس نابيير بمحاصرة سواحل مصر وسوريا، موجهاً انذاراً للجيش المصري بإخلاء بيروت وعكا. وفي الوقت ذاته الذي كانت فيه فرنسا تؤيد مصر في حربها، سعت لتحذير مصر بما تضمره بريطانيا(طربين ، ١٩٦٦ ، ص ٤٥). وامام التحالف العثماني– الاوربي، وصل الاسطول الدولي بقيادة الاميرال روبرت ستوتفورد، والاميرال النمساوي باندريارا، وكان يتألف من ثلاث وعشرين سفينة حربية بريطانية وخمس سفن عثمانية وثلاث نمساوية، تحمل بين عشرة وخمسة عشر الف جندي عثماني والفي جندي اوربي. وقد انزلت تلك القوات في ميناء جونية شمال بيروت، كما قامت بتسليح الفلاحين في الجبل ودفعهم الى الثورة ضد المصريين. وفي الثالث من ايلول ١٨٤٠، بدأت قوات الدول المشتركة وفي مقدمتها بريطانيا بضرب جيش محمد علي في سوريا وبيروت، مما اسفر عن تدمير سوقها واحراق الاسطول المصري، وسقوط خسائر بشرية كبيرة(شبارو ١٩٨٧، ص ص ١٥٥ – ١٥٦؛ Marlowe , 1954, p p 46-48). وفي الخامس عشر من ايلول ١٨٤٠، عقدت "**معاهدة لندن**" الشهيرة بين بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا والدولة العثمانية بهدف ايجاد تسوية نهائية تضع مصر وفرنسا امام الامر الواقع ، وقد تضمنت بنود المعاهدة على منح محمد علي حكماً وراثياً لمصر اضافة الى ولاية عكا، بشرط ان يوافق خلال عشرة ايام فقط، مقابل تنازله عن جميع الاراضي التي احتلتها الجيوش المصرية في مختلف الاقاليم العثمانية، الى جانب بنود اخرى مجحفة بحقه، الا ان محمد علي رفض تلك الشروط، مستنداً الى دعم فرنسا وتأييدها له، الا ان آماله خابت بتغيير فرنسا موقفها تجاه مصر (المهتار ، ١٩٦٢، ص ٢١٥ – ٢١٦؛ Joll , 1960, p 99). وبذلك انتهى الصراع الدولي الذي قادته بريطانيا ضد محمد علي باشا بإجبار القوات المصرية على الانسحاب من سوريا وعودة المنطقة الى السيادة العثمانية، كما جرى تأكيد ولاية محمد علي على مصر ولأسرته من بعده، وذلك وفقاً لفرمانات الثلاثة عشر من شباط ١٨٤١ (Anderson , 1966, P. 146)بعد ان فرضت بريطانيا كلمتها الاخيرة على محمد علي سياسياً واقتصادياً، واضعة مصالحها في المقام الاول، اتجه الباشا الى نسج علاقة جديدة مع بريطانيا بهدف تحسين الروابط معها، ولاسيما بعد سقوط وزارة الاحرار عام ١٨٤١ ونجاح مستر بورنج الذي اوفدته بريطانيا الى القاهرة لكسب ود محمد علي ، فضلاً عن تقديم وارسال الهدايا الثمينة لتعزيز تلك العلاقة (زيان، ٢٠١١، ص٤٠).

الخاتمة والاستنتاجات

يتبن لنا مما سبق ان التنافس البريطاني – الفرنسي تجاه حكومة محمد علي في مصر ١٨٠٥ – ١٨٤٨، وما طرأ على الساحة السياسية من احداث. وما شهدته مصر في بداية القرن التاسع عشر من تحولات كبيرة اعقبت خروج الحملة الفرنسية ومن ثم التدخل البريطاني. فقد عانت مصر آنذاك اضطرابات وانقسامات وصراع داخلي جعلها عرضة للأطماع الخارجية ، ولاسيما من جانب كل من بريطانيا وفرنسا، اللتين بذلتا محاولات عدة للسيطرة على مصر واحياء طريق المواصلات عبر البحر الاحمر . فقد سعت بريطانيا لتنفيذ سياستها الاستعمارية في الشرق الاوسط، ولاسيما في مصر، اذ اتجهت بريطانيا منذ حملة نابليون بونابرت على مصر ١٧٩٨، لتتبني سياسة جديدة مفادها حماية مصالحها في الشرق الاوسط مرتبطة بإدامة تواجدها العسكري. ورأت في صعود محمد علي تهديداً لنفوذها وانتصاراً للنفوذ الفرنسي، فحرصت على احباطه وتحالفت مع المماليك بعد صلح اميان ١٨٠٢، ولكن ذلك التحالف لم يأت بالنتيجة المأمولة فلجأت الى القوة العسكرية وارسلت حملتها (حملة فريزر) في ١٨٠٧ ، الا ان التطلعات اصطدمت بشخصية قوية تمثلت في محمد علي باشا الذي استطاع ترسيخ حكمه والحاق الهزيمة بالبريطانيين في مصر مما شكل ضربة قوية للسياسة البريطانية آنذاك . ومع ازدياد قوته وتوسع نفوذه في شبه الجزيرة العربية عبر القضاء على الحركة الوهابية وتدخله في الثورة اليونانية، ومن ثم احتلاله للسودان وضمه سوريا، وجدت بريطانيا نفسها امام تحد كبير فتبنت سياسة مزدوجة في الظاهر متناقضة الغاية، تقوم على منع اي دولة اوربية ولاسيما فرنسا، من السيطرة على مصر او التأثير في مصالحها الاستراتيجية. كما حرصت على ابقاء مصر في اطار الدولة العثمانية المتداعية، وعدم انفصالها تحت اي حكم. وتعزيز النفوذ البريطاني في تلك الامبراطورية. وضمان عدم تغلغل النفوذ الروسي بما يهدد مصالحها.

اما فرنسا، فقد سعت لإحياء واعادة علاقاتها مع مصر، وقد تجلى ذلك في تشجيع محمد علي ومساندته، املاً في تقليص نفوذ بريطانيا بأي شكل من الاشكال، ولضمان موطئ قدم لها في البحر المتوسط. الا ان تلك السياسة واجهت عقبات كبيرة نتيجة ضعف موقع فرنسا الدولي اثر سقوط نابليون بونابرت وعودة الحكم الملكي وما تبعه من اضطرابات وتطورات داخلية، فضلاً عن ضعف قوتها البحرية مقارنة ببريطانيا في البحر المتوسط ، وعدم رغبتها بتضحية علاقاتها مع بريطانيا، وقد جعلها ذلك تتأرجح بين اظهار دعمها لمحمد علي وبين التمسك بصداقتها مع بريطانيا، مما ادى في النهاية الى فشل تلك المساعي في تعزيز نفوذها في مصر والمنطقة.

المصادر العربية والمعربة:-

- طربين، أ. (١٩٦٦). ازمة الحكم في لبنان منذ سقوط الاسرة الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية (١٨٤٢ –١٨٦١) . دمشق: دار الفكر المعاصر.
- خوري، أ. و اسماعيل، ع. (١٩٦٠). السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٩٥٨. من مؤتمر فينا ١٨١٥ الى معاهدة المضايق ١٨٤١. بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ . ج ٢.
- خوري، أ. و اسماعيل، ع. (١٩٥٩). السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٩٥٨. من الثورة الفرنسية ١٧٨٩ الى مؤتمر فينا ١٨١٥. بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ. ج ١.
- قطاوي، ج. و قطاوي، ر. (٢٠٠٨) محمد علي و اوربا. (ترجمة أ. يلوز). القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ط٢.
- فارجيت، ج. (٢٠٠٣) . محمد علي مؤسس مصر الحديثة. (ترجمة ر. عواد). القاهرة : المجلس الاعلى للثقافة.
- فهمي، خ. (٢٠٠١) . كل رجال الباشا . محمد علي وجيشة وبناء مصر الحديثة. (ترجمة ش . يونس). القاهرة : دار الشروق.
- الغنام، س. (٢٠٠٤) . سياسة محمد علي باشا التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا (١٨١١ – ١٨٤٠). المغرب: المركز الثقافي العربي.
- كمال، س. ن. (٢٠٠٣) سياسة محمد علي باشا والي مصر تجاه العراق والخليج العربي وموقف بريطانيا والدولة العثمانية منها ١٨١٦ – ١٨٤٠، (رسالة ماجستير منشورة). جامعة الموصل، كلية الآداب.
- المهتار، ط. (١٩٦٢). اثار حملة بونابرت على مصر. بيروت.
- الروقي ، ع. ب. خ. (١٩٨٦). حروب محمد علي في الشام واثرها في شبه الجزيرة العربية ١٢٤٧ – ١٢٥٥ هـ – ١٨٣١– ١٨٣٩ م . المملكة العربية السعودية .
- قاسم، ع. ع. (٢٠٠٩). العلاقات الدولية بين اوروبا والشرق (١٧٨٩ – ١٩١٩) . القاهرة : مكتبة مدبولي.
- البطريق، ع. (١٩٧٤). التيارات السياسية المعاصرة. بيروت.
- الرافعي، ع. (١٩٨٩). عصر محمد علي. ، القاهرة: دار المعارف، ط٥.
- رفاعي ،ع. (١٩٦٢). انتصار مصر في رشيد. القاهرة: دار القلم.
- شبارو، ع. م. (١٩٩٢). المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني. بيروت.
- شبارو، ع. م. (١٩٨٧). تاريخ بيروت منذ اقدم العصور حتى القرن العشرين. بيروت: دار مصباح الفكر.
- المشايخي، ع. خ. ع. (١٩٩٧). السياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٧٩٨ – ١٨٨٢. (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة بغداد، كلية الآداب.
- اباظه، ف. ع. (١٩٨٧). عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩– ١٩١٨. القاهرة: الهيئة المصرية .
- كورخان، ك. ج. (٢٠١٥). العلاقات المصرية الفرنسية في عهد محمد علي ١٨٠٥– ١٨٤٩. (ترجمة ن. ح. ع. الوهاب). القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- صبري، م. (١٩٧٢). تاريخ العصر الحديث. مصر من محمد علي الى اليوم . مصر: مطبعة مصر، ط٢.
- ابو الفضل، م. ع. ف.(١٩٩٩). الصحوة المصرية في عهد محمد علي. مصر: المجلس الاعلى للثقافة.
- شكري، م. ف. (١٩٩٥). مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ – ١٨١١. القاهرة، ج١.
- دسوقي، م. ك. (١٩٧٦). الدولة العثمانية والمسألة الشرقية. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.

- زيان، ن. ا. ع. (٢٠١١). الجالية البريطانية في مصر. القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

Translated References:-

- BedeviKuran ,A. (1948). inklaup Tarinimiz ve ittihad veTerakki. Istanbol.
- Mcgregr, A. (2006). A Miliary History of Modern Egypt. London.
- Bertrand, G. (1847). Campagnes D'égypte et De Syrie 1798- 1799. Paris. Vol. 1.
- Dodwell, H. (1931) The Founder of Modern Egypt. A Study of Muhammad Ali. Cambridge. At the University press.
- Watson, H. S.(1967). The Russian Empire 1801 -1917. Press: Oxford. At the Clarendon.
- Joll, J. (1960). Britin and Europe Pitt to Churchill (1793_1940). London.
- Marlowe, J. (1954). Anglo-Egyptian Relations 1800 -1953. London.
- Anderson, M. S.(1966). The Eastern Question 1774 -1923. London.
- Shaw, S. J.& Shaw, K. (1977). History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Reform Revolution and Republic. The Rise of Modern Turkey 1808-1975.Cambridge: Cambridge University Press ,Vol 2 .
- oztuna, Y. (1989). ikinci Mahmd. Ankara: Birinci Baki Sevin Matbaasi.